

المحاضرة الثانية : الغزو الايبيري لبلاد المغرب

أولا : العدوان الاسباني على المغرب العربي :

لقد ارتبطت الاعتداءات الاسبانية على شمال افريقيا بتطور الأوضاع العامة في اسبانيا والمغرب العربي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين .

ولقد ساعدت الحرب مع المسلمين في الاندلس على ظهور الروح القومية في اسبانيا وادت الى ميلاد اسبانيا الحديثة الموحدة 1474 بعد الزواج الذي تم بين فرديناند ملك اراغون وبين ايزابيلا وارثة عرش قشتالة عام 1469 يضاف الى ذلك نجاح الاسبان في الكشوفات الجغرافية وتحقيق موارد مالية ضخمة وانتصارهم على مسلمي الاندلس 1492 والقضاء على وجودهم مع التحريض المستمر من طرف الكنيسة لاسبان خاصة ولسكان أوروبا عامة على مواصلة الحرب ضد الإسلام والمسلمين واعتبار الاسبان لشمال افريقيا بانها تمثل نقطة الوثوب لاحتلال اسبانيا من جديد من طرف المسلمين المغاربة وان تكون في نظرهم السند العسكري القوي الذي اخر عملية الاسترداد عدة قرون على الرغم مما كان عليه مسلمو اسبانيا من ضعف وتمزق كما كان لوصية الملكة ايزابيلا بمواصلة الحرب ضد المسلمين في المغرب العربي تأثير كبير يقولها " اني ارجو الاميرة ابنتي جين والأمير زوجها فيليب وامرهما بطاعة وصايا امنا المقدسة الكنيسة طاعة تامة وان يكون حماتها والمدافعون عنها حسبما يقتضي واجبهما والا يكفا عن متابعة فتح افريقيا ومحاربة الكفار في سبيل الايمان " وكان لرجال الدين الاسبان دور كبير سيما رجال محاكم التفتيش الذين ظلوا يغذون على الدوام نار التعصب واضطهاد المسلمين بوحشية خاصة بعد سقوط غرناطة في سنة 1492م .

وقد كان للأوضاع السائدة في شمال افريقيا اثر كبير على السياسة الاسبانية اذ كانت الدول الثلاثة الحاكمة في الشمال الافريقي في حالة ضعف وتفكك كما سبق ذكره مما ساعد على تفكك السلطة السياسية وانتشار الفوضى فصارت هذه الأقطار وخاصة المغرب الأوسط فسيفساء سياسية يتعذر تحديده مما شجع الاسبان والبرتغال على مواصلة تحقيق اهدافهما التوسعية فاخذ الاسبان في التمهيد والاستعداد لاحتلال هذه الأقطار مستعملا العيون والجواسيس للكشف عن حالة البلاد العامة

وقد بعث احد الجواسيس الذين وجههم فرديناند الى بلاد المغرب تقريراً مفصلاً مما جاء فيه قوله " ان كافة بلاد شمال افريقيا تحتاز فترة انهيار نفسي يظهر معها ان الله قد أراد ان يجعل هذه البلاد ملكاً لصاحبي الجلالة المسيحية " ومما زاد في قلق الاسبان ظهور القرصنة ونشاطها على سواحل المغرب العربي بتأثير عدة عوامل منها الازمة الاقتصادية والسياسية منذ منتصف القرن 14 وهجرة مسلمي الاندلس الى شمال افريقيا واستقرارهم في الموانئ واسهامهم في تمويل سفن القرصنة وتشجيعها بداعي الربح والانتقام ممن طردهم من موطنهم .

وقد شمل العدوان الاسباني المغربيين الأوسط والادنى وجزء من الشمال الشرقي للمغرب الأقصى بينما اكتفى البرتغال بشواطئ المغرب الغربية المطلة على المحيط الأطلسي وباقي شواطئ افريقيا الغربية وذلك بعد معاهدة تورديسيلاس 1495 التي ابرمت بين اسبانيا والبرتغال برعاية البابا والتي خصصت لإسبانيا المناطق الواقعة شرقي حجر باديس (فاليس أو فاليز) المغربية وتعود أسباب العدوان الى ما يلي :

1- أسباب وعوامل العدوان الاسباني :

الدوافع الدينية هي وليدة الصراع مع المسلمين خلال حرب الاسترداد وقد اشتدت تجاوباً مع دعوات وتحريض البابا إسكندر الرابع بورجيا الشهير الى الحرب الصليبية في النصف الثاني من القرن 15 اثر سقوط القسطنطينية عام 1453 ووصول الاتراك الى اسوار البندقية في أواخر ذلك القرن وقد لعب المتعصبون من رجال الدين وعلى راسهم الكاردينال خيمينيس دوراً بارزاً في اعداد الحملات الاسبانية وتوجيهها بل قدم من ماله الخاص ما مكن لها تجهيز العمارة البحرية كاملة ولم يكتف بذلك بل راح يستنجد بكنايس اسبانيا التي بعثت اليه بكميات كبيرة من المال وقد باع كثير من القساوسة والرهبان ادواتهم الفضية من اجل المشاركة في الحملة ضد السواحل الافريقية وقد بادر البابا الى نشر قرار يعطي فيه الولاية لملكي اسبانيا على كامل الأرض التي يفتحانها في المغرب العربي .

وزاد من تعصب الاسبان وتأکید استمرارهم في خطة احتلال اقطار المغرب العربي ثورة المسلمين في غرناطة عام 1501 وهجمات القراصنة المسلمين على الجزر والسواحل الاسبانية عام 1505 خاصة وان نشاط القرصنة كان يسهم فيه مسلمو الاندلس المطرودين من اسبانيا وقد كانوا يقصون على إخوانهم من شمال

افريقيا قصص الحروب الاضطهاد والغدر والنهب والاعتداء على المساجد وحرقتها وتدمير كل ماله صلة بالمقدسات الإسلامية فأثاروا بذلك عواطف المغاربة وطلبوا مساعدتهم لإنقاذ إخوانهم المسلمين الذين حال فقرهم دون مغادرة اسبانيا .

كما ان الامراء الاندلسيين الذين لجأوا الى بلاطات فاس وتلمسان وتونس كانوا يستصرخون ويستغيثون حكام هذه الأقطار كل يوم ليمدوا يد المساعدة لإخوانهم في الاندلس وفي انتظار قيام رد فعل مغربي حكومي ضد اسبانيا بدا سكان مختلف موانئ المغرب العربي يشنون حربا بحرية ضد السفن التجارية والموانئ الاسبانية التي اخليت من سكانها الذين اضطروا الى مغادرتها وكان المسلمون الذين اجبرتهم ظروفهم على البقاء في اسبانيا وارغموا على تغيير دينهم يتصلون سرا برجال البحر المسلمين ويمدونهم بالمعلومات الكافية ليقوموا بهجمات دون ان يتعرضوا للأخطار وقد رفع سكان الموانئ الاسبانية شكاوى الى الملكة معلنين عدم استطاعتهم دفع الضرائب لعدم تمكنهم من مزولة التجارة الخارجية او زراعة أراضيهم .

أ- الدوافع السياسية والاستعمارية:

لقد كانت سواحل المغرب العربي ضرورية لكل اتصال بحري امن بين السواحل الاسبانية وسواحل إيطاليا الاسبانية وضرورية لنشاط اسبانيا في البحر الأبيض المتوسط وكان الكاردينال خيمينيس يعرف كيف يوفق بين الدوافع الدينية والسياسية اذ كان يرى ان الاستيلاء على المغرب الأوسط ضروري للتوسع الاسباني فكانت عملية العدوان من تصميمه هو والملكة ايزابيلا حيث كلفت الملكة اثنين من اتباعها بمهمة استطلاعية سرية في مملكة تلمسان في عهد السلطان ابي عبد الله محمد الثاني 1495-1503 وتكرر المبعوثان في زي التجار فامضيا عاما في تلمسان وحصلا على كل المعلومات التي تخدم مشروع الغزو الذي كان يجري الاعداد له كما استعان الكاردينال بأحد البنادقة الذي كانت له خبرة واسعة بسواحل المغرب الأوسط .

ولما توفرت المعلومات الكافية قررت الملكة مهاجمة تلمسان واعدت قوة كبيرة بقيادة حاكم غرناطة الذي مول الحملة الا ان موت الملكة عام 1504 اخر الحملة التي كانت حلم حياتها ولكنها لم تنس ان تطالب في وصيتها بعدم التوقف عن فتح المغرب العربي .

وكان فرديناند يرغب في تأجيل هذه الحملة ريثما تنتهي الحرب الإيطالية ولكن انتصاره على الفرنسيين من جهة وهجوم بحارة المرسى الكبير على عدة موانئ اسبانية عام 1505 من جهة أخرى دفع فرديناند الى اتخاذ قرار تنفيذ مشروع الحملة .

ان ملوك اسبانيا الذين تمكنوا من تحقيق الوحدة استولوا على زمام الأمور بيد من حديد بحمل السيف والانجيل معا وأصبحوا يطمحون الى السيطرة على العالم ويتجهون بمنظار الجشع والطمع الى الاستيلاء على القارة الافريقية والأوروبية كما سبق لهم ذلك في القارة الامريكية التي عانت منهم أقسى المحن والويلات .

فانطلق هؤلاء الملوك شمالا وجنوبا وغربا في الجري وراء اطماعهم التوسعية فذاقت منهم أوروبا الامرين حيث كانوا يحاولون احياء امجاد و ممتلكات الإمبراطورية القديمة ولا يقبلون بحال من الأحوال ان تظهر دولة تتازعهم السيادة والسلطان شرقا وغربا او بحرا فكان هذا الجشع الاستعماري يدفعهم الى سواحل المغرب العربي و بخاصة عندما ادركوا خطر الدولة العثمانية التي بزغ نجمها في الشرق الإسلامي فأرادوا ان يسبقوها الى مناطق المغرب العربي قبل ان تسبقهم اليها فتصبح خطرا على اسبانيا في عقر دارها

ب- الأسباب الاقتصادية :

الى جانب الأسباب السابقة الذكر فهناك أسباب اقتصادية هامة اذ ان اسبانيا أصبحت تعاني من ازمة اقتصادية رهيبة بعد تقويض دولة الاندلس الإسلامية وتشيتت شمل المسلمين وابعادهم عن البلاد كما ابعد اليهود واحرق من بقي منهم ونتيجة لذلك كله تعطل الإنتاج وانعدمت وسائل التصنيع وتدهورت التجارة والمعاملات وأمام هذه الحالة لم يبق للإسبان من سبيل لكسب المعيشة الا ذلك النوع من اللصوصية المسلحة العدوانية المسماة بالاستعمار فاندفعوا في غزوات ومغامرات في أوروبا وامريكا يستحوذون فيها على كل شيء ظلما وعدوانا بواسطة زرع الموت والخراب ليحصلوا على شتى الغنائم وهاجر قسم من السكان المغامرين الى أمريكا واستقروا بها دون امل في الرجوع بعد ان قضوا على السكان الأصليين وبادوهم .

وقد تطلع الاسبان الى بلاد المغرب العربي املا في اخضاعها الى الحكم الاسباني لتكون وسيلة لحل الازمة الاقتصادية الخائفة التي تعاني منها اسبانيا وذلك لاشتهار المغرب العربي منذ زمن طويل بانه مهد الخيرات ومصدر للثروات من مزارع وغابات ومروج وحيوانات ومرجان وما فيه من صناعات مختلفة نالت شهرة واسعة

من جلود واصواف وحرير وان الاستيلاء على سواحل المغرب العربي يجعل الحوض الغربي من البحر المتوسط بحرا اسبانيا بحتا لان اسبانيا كانت تملك الساحل الجنوبي الغربي من إيطاليا وتملك كل الجزر التي به من صقلية سردينيا كورسيكا والباليار فهي بذلك تستطيع تشكيل وحدة اقتصادية قوامها الاتصال المباشر بين شمال البحر المتوسط وجنوبه في الحوض الغربي منه وتحمي بذلك سياسة (بحرنا) الرومانية .

وعليه بدأت يد الاسبان تطرق أبواب المغرب العربي وتندر بالويل والدمار منذ بداية القرن 15 م فاحتلوا مدينة تطوان عام 1400 وقتلوا نصف سكانها وساقوا الباقين من الرجال والنساء اسرى وصبايا الى اسبانيا في حين كان الملك المريني يحارب مملكة تلمسان الزيانية من اجل ارغامها على التبعية له وقد امتلك الاسبان بالمغرب الأقصى صخرة باديس (فاليس) ومدينة مليلية مع سبتة وبلدة افني الى يومنا هذا.

كما امتدت يد الاسبان الى مرفأ عنابه 1463 م وانطلقت حملة من مدينة مالقة قوامها عشرة الاف مقاتل بقيادة ديجو فرديناند يوم 22 اوت 1505 ولم يصل الى المرسى الكبير إلا في 11 - 9 بسبب الرياح العاتية التي اخرت وصوله فكان هذا التأخر في صالح الحملة لان الجزائريين الذين استعدوا لصدّها تفرقوا ظنا منهم ان الاسبان قد عدلوا عنها ولما رسا الاسطول قرب المدينة قاومته القوات الجزائرية ب 500 مقاتل مقاومة عنيفة دامت 03 أيام ولكن دون جدوى لقلّتهم فاضطرت حامية الميناء الى الاستسلام وعقدت اتفاقية مع الاسبان تضمن لسكان المدينة حرية الانسحاب منها ومغادرتها فمنح القائد الاسباني مدة ثلاث ساعات للمسلمين لإخلاء المدينة دون اخذ شيء من ممتلكاتهم وعند دخولهم المدينة سارعوا الى تحويل المسجد الى كنيسة للنصارى سماها كنيسة القديس ميكايل كما سارع الجيش الاسباني الى التحصن بالمدينة ونصبوا عليها مدافعهم فور تسلمهم لها مما جعل قوات النجدة تعجز عن زحزحة الاسبان عن المدينة وما كاد خبر الاستيلاء على المرسى الكبير يصل الى مسامع سكان اسبانيا حتى غمرتها موجة من الفرح والابتهاج وعلن فيها العيد لمدة أسبوع لانها رات في هذا الفوز بشائر النصر المقبل الذي يحقق امالها وأهدافها وجاء الامر من ملك اسبانيا بتعيين القائد فردينانديز حاكما على المدينة .

ثم توجه الاسبان فاحتلوها عام 1505 وبعدها سقطت بجاية التي كان يحكمها امير حفصي وجزر من مدينة الجزائر 1520 ودلس وتنس وكانت جميعها استسلمت للقائد بيدرونافارو وفي سنة 1511 انقضى الاسبان

على طرابلس فدمروها ثم سلموها لفرسان مالطا وبعد هذه الهجمة جهز الملك الاسباني شارلكان باسم البابا ونيابة عن أوروبا حملتين الأولى بين سنتي 1534_1541 والثانية سنة 1560_1570 هدفت الى احتلال المغرب العربي والبحر المتوسط وقد نتج عن الموجة الأولى سقوط مراكز التجارة الرئيسية لبلدان المغرب في يد المسيحيين ولم تقدر أنظمة الحكم على المواجهة بل فكرت في الخيانة والاستسلام مثلما فعل الاميران الزياني والحفصي الذين لجأ لحماية شاركان عام 1534 في الوقت الذي كانت فيه القوى المحلية عاجزة عن مواجهة الموقف .

ثانيا : العدوان البرتغالي على سواحل المغرب:

جاءت الاعتداءات البحرية البرتغالية كصدى لسقوط القسطنطينية في يد المسلمين فهبت البابوية تدعو ملوك المسيحيين الى تنظيم حملات صليبية جديدة ضد الإسلام والمسلمين وقد لبى البرتغاليون هذه الدعوة فسبقوا غيرهم الى التوسع الصليبي الاستعماري وضربوا مثلاً حسدهم عليه ملوك قشتالة وأراغون وقد وجه البرتغاليون عدوانهم الى الموانئ المغربية الواقعة على المحيط الأطلسي سواحل الشمال الغربي من المغرب الأقصى فملكوا في حوالي نصف قرن مجموعة ثغور منها سبتة، طنجة، القصر الصغير، أغادير، أسفى ، أزموور ، وأنشأوا فيها وكالات تجارية لتحقيق الغرض الاقتصادي ولم ينج المغرب الأوسط من حملاتهم اذ سبق لهم ان احتلوا مدينة المرسى الكبير 1415-437 م وطردوا منها ثم اعادوا الكرة وتمكنوا من احتلالها ولبثوا بها 06 أعوام من 1471-1477 حيث ابعدوا نهائياً عنها الى ان احتلها الاسبان عام 1505م .

وقد سقط كل الساحل المغربي على المحيط الأطلسي في يد البرتغاليين أيام الفوضى والاحتلال المريني بعد حروب ومعارك قاسية ابلى فيها المجاهدون المغاربة البلاء الحسن حيث لم تكن لهم لسوء الحظ قيادة منظمه رشيده نظرا للفوضى والانقسام والتناحر على الحكم بين الوطاسيين و المرينيين .

وفي حقيقة الامر ان أنظمة الحكم التقليدية لم تكن قادرة على مواجهة الغزاة المسيحيين وفكرت في الاستسلام والخيانة مثلما فعل امير الزيانيين وامير الحفصيين الذين لجأ لحماية شارلكان عام 1534 كما كانت القوى المحلية الضعيفة عاجزة عن مواجهة الموقف وعليه كان الإحساس العميق يؤكد للمغاربة ان الخلاص لايمكن ان يأتي الا من خارج الأنظمة المتهاكمة

ثالثا : ردود الفعل المحلية

1- المجاهدون والاشراف :

تحملت الزاوية باعتبارها مؤسسة اجتماعية دورا في جهاد الغزاة المسيحيين ولعل ذلك راجع الى بعدها الديني والاجتماعي فقد جمعت كثير من القبائل تحت راية الجهاد لتزاحم بذلك السلطة الرسمية المتفجرة ومن مهمة التعليم تحولت الى ربطات الجهاد ضد البرتغاليين والتف حولها الجمهور الذي انقاد لها بتلقائية فريدة لعلها تفسر بالرغبة في الجهاد او في الانتقام من السلطة الرسمية او لاعتبارات الشرف وادعاء معرفة أمور الغيب ومن قادة الزوايا في المغرب محمد بن سليمان الجزولي المتوفي عام 1465 والذي كان يجوب سهول الحوز و السوس داعيا للجهاد وجاء بعده محمد السعدي ليدعوا الى فكرة استقلال ال البيت بالسلطة وهذا ما أثار أحمد الوطاسي الذي أحس بان الجنوب المغربي اصبح تحت سلطة الاخوين احمد الاعرج المستقر في مراكش ومحمد الشيخ المقيم بتارودانت وعندما عزم مواجهتهما تدخل علماء فاس لعقد الصلح وقد اعترف بموجبه احمد الوطاسي باستقلال السلطة السعدية بحكم الجنوب وتفرغ السعديون بعدها لمواجهة الغزاة المسيحيون فردوا بنجاح الهجوم البريطاني على سانت كروز وارغموا البرتغاليين على الجلاء من الموانئ المحتلة وزادت هذه الانتصارات في ذبوع صيت السعديين وازدياد نفوذهم السياسي ورجحت كفتهم على الوطاسيين .

2- ظهور رجال البحر العثمانيين في المتوسط :

تزامن توسع الاسبان في السواحل المغاربية مع مقدم رجال الجهاد البحري الاتراك الى الضفة الغربية من المتوسط وقد استجابوا لنجدة السكان المسلمين المهددين ونزلوا الى عرض البحر لمواجهة الغزاة الاسبان وحماية المسلمين وكان من بينهم الاخوة بابا عروج وخير الدين باربروس وقد كانا من رجال البحرية العثمانية جاء الى جربة التونسية وشرعا في تجنيد المتطوعين وبناء السفن وبعد ان ذاع صيتهما في السواحل التونسية استتجد بهما اهل زاوة بالجزائر فقدموا الى جيجل وبادرا الى المساعدة في تحرير بجاية من الاسبان ثم استجابا لنداء سكان مدينة الجزائر المهددة بالغزو الاسباني ودخلا المدينة على راس قوات برية وبحرية وواصلوا زحفهما الى تنس وشرشال وبعد تفكير ملي قرر خير الدين وعروج الاستحواذ على السلطة بالمدينة والتخلص من مؤامرات حاكمها سالم التومي وبعد ان استقر الامن بالجزائر توجه بابا عروج صوب الغرب الجزائري

لمحاربة الاسبان بوهراڻ والمرسى الكبير ثم لى دعوة التلمسانيين لتخليصهم من الاسبان ومؤامرات الحاكم الزياني وخاض مواجهات محتدمة ضد الاسبان الى ان استشهد عام 1518 وتحمل بعده اخوه خير الدين عبئ الجهاد وقيادة السلطة العثمانية الجديدة في بلاد المغرب الأوسط حيث تمكن من توحيد البلاد المشتتة تحت سلطة واحدة ودعم الجهاد البحري لتخليص سواحلها من الاسبان وقد لقي مساندة ومباركة الدولة العثمانية التي عينته حاكما على الجزائر عام 1518 وقد افشل خير الدين الهجمات الاسبانية العنيفة على الموانئ الجزائرية ومنها الحملة على مدينة الجزائر عام 1519 وبعد عشر سنوات تمكن من طرد الاسبان من حصن الفنار وسيطر على القالة وعنابة عام 1522 وفي عام 1534 دخل خير الدين تونس المهددة بغزو الاسبان واستقبل استقبال الابطال في حلق الواد وتونس وبعدها بسنة ارسل شارل الخامس اسطولا ضخما لاحتلال تونس واستولى على حلق الواد وتونس اثر معارك طاحنة ورد خير الدين على هذه الهزيمة بشن حملة على ميناء ماهون الاسباني ونتيجة لما حققه خير الدين من إنجازات اوكل اليه السلطان العثماني قيادة البحرية العثمانية ومواصلة حركة الجهاد في غرب البحر المتوسط .

وفي عام 1541 شن شارل الخامس حملة قوية على مدينة الجزائر شاركت فيها 516 سفينة ولكنها رجعت خائبة امام صمود الاسطول الجزائري وواصل خلفاء خير الدين حسن اغا وحسن باشا وصالح رايس مهمة الجهاد البحري وتخليص تونس وطرابلس من الغزو الأوروبي كما عينت السلطة العثمانية درغوث قائد للبحرية لمواجهة التحالفات الأوروبية التي كانت تحركها اسبانيا من اجل احتلال تونس وتمكن رفقة مراد اغا سنة 1551 من تخليص طرابلس من فرسان مالطة ومنها انطلق لتحرير تونس حيث نظم حملة لتخليص جربة من الاحتلال الاسباني عام 1506 حققت انتصارا باهرا على قوات اندري دوريا وبعد واقعة ليبانت شن الاسبان بقيادة دون خوان حملة على تونس عام 1573 لكن الاسطول العثماني بقيادة العلي وسنان باشا تمكن من استرداد حلق الواد وتونس وكانت هزيمة ساحقة للاسبان انتصاهم في موقعة ليبانت وجعلتهم يتراجعون عن مخطط غزوهم للسواحل المغربية التي لم تعد طيعة في ظل سلطة الاتراك القوية وهكذا يبدو لنا ان الوضع العام في بلاد المغرب خلال القرن السادس عشر الميلادي كان متدهورا وهو مادفع القوى المسيحية التي كانت تشهد عصر النهضة والتطور الى شن حملات عسكرية على سواحل بلاد المغرب ولولا ظهور قوى

الطرق الصوفية والاشراف في المغرب والعثمانيون في الجزائر وتونس وليبيا لوقعت هذه المنطقة تحت الهيمنة الايبيرية وقد استطاع رجال البحر العثمانيين رفع التحدي ومجابهة الأخطار التي كانت تهدد بلاد المغرب وقد كللت جهودهم بانشاء سلطة مركزية في الجزائر والتوسع نحو تونس وطرابلس ووضع حد للتهديدات الاسبانية التي طالت السواحل المغاربية وكسب جانب الدولة العثمانية لمواجهة التحدي المسيحي في الحوض الغربي للمتوسط.